

أدونيس، قراءة جديدة للشعرية العربية

Adonis ; a new Reading in Arabic poetics

الدكتور: سعيد بكير

جامعة حسية بن بوعلي – الشلف-

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز المفهوم الجديد للشعرية عند أدونيس، حيث ارتبط مفهومها في القديم بما له صلة بالشعر وبقواعد عمود الشعر، ولكن مع هبوب رياح الحداثة تغير المفهوم، وأصبحت تُعنى بمسائل أدبية الأدب والقوانين الداخلية التي تحكم الخطاب الأدبي، كما أنها أعطت اهتمامًا خاصًا باللغة والكلمة، ما مكّن لها من أن تُحسب من أهم النظريات النقدية المعاصرة، التي تعتمد في قراءة النصوص الإبداعية على اختلاف أجناسها وألوانها.

الكلمات المفتاحية:

الشعرية – التجاوز – التحوّل – شعرية التأويل – اللغة العليا – القراءة الجديدة.

Abstract:

This study aims at clarifying ,The new meaning of the science of poetry for Adonis since its definition in the pas was related to all that have a relationship with poetry and its rules .In modern times, this meaning has been changed and is concerned with issues related to literature and the rules that govern literary speech. It pays a particular interest to the language and the word, the fact that enables it to be among the most important modern critical theories in the reading of literary texts despite their different genres.

توطئة:

إنّ الكلام على الشعرية عند أدونيس، يقذف بنا إلى دخول مزدوج : دخول إلى عالم الشعر، وهو عالم واسع ساحر، لا يعرف الثبات، ودخول ثانٍ إلى عالم الشاعر المتحوّل، المتغيّر، الشائك والمتناقض، و الدخول الثاني بدوره ينقسم إلى قسمين :

- دخول إلى عالم شاعر مسكون بالحدّات والإملات الغريبة.
 - دخول آخر إلى عالم مفكر عربي يتأمل هواجس الإنسان والشاعر العربي، ويأمل واقعاً أفضل.
- وبناء على هذه الرؤية، يتوجّب على قارئ أدونيس، أن يكون حذراً في التعامل مع نصوصه، حتى يستطيع مقارنة أفكاره ومناقشتها، لأنّه لا يستقر على حالٍ، فأدونيس في "الثابت والمتحوّل" ليس نفسه في "زمن الشعر" ولا "سياسة الشعر" ولا "موسيقى الحوت الأزرق" ولا في "الكتاب الخطاب الحجاب".
- والمتّبع لمسيرته مع الشعر، يجده مرّ بثلاثة مراحل : فمع مجلّة "الشعر" أبدع قصيدة جديدة، ومع مجلّة "مواقف" أسّس لكتابة جديدة، والآن يحاول التأسيس لقراءة جديدة، ثلاثة مساعٍ وضعها هدفاً لمشروعه الشعري، وضمن هذا المشروع، أحاول في بحثي هذا ملامسة رأيه في الشعرية (القديمة والحديثة)، باعتبارها جانباً من جوانب أبحاثه، ولكن انطلاقتي ستكون من حيث انتهى أدونيس، أي من القراءة، وهي قراءة من القراءات الكثيرة له في العالم العربي.

مفهوم الشعرية عند أدونيس:

إنّ نظرة أدونيس للشعرية العربية، مبنية أساساً على "التحوّل"، فهو يرى بأنّ الحدّات، في الإبداع والخلق وليس في النتاج، وإنّ بدايات هذا التحوّل، كانت في الخروج عن الثابت، و مثلها كل من: امرئ القيس الشعراء الصعاليك، أبو نؤاس، أبو تمام، المعتزلة، الشيعة والخوارج، وكلّها محاولات تسعى لصنع الجديد لكنها لم تعرف مساندة من النقد، إلّا مع الجرجاني في ربطه الشعرية بنظرية النظم، ويتحقّق النظم بحسن تخيّر ورصف الكلم، وكشف المعنى العميق للنص، "فهو

يرى أنّ (النظم)، هو الأساس في الكشف عن شعرية الكتابة أو النص⁽¹⁾، ومع جهود القرطاجي رُبط الشعر بقائله وبالتخييل، أضف إلى ذلك ما قدّمه الفلاسفة المسلمون من جهود في تعريف الشعرية، "وكان للمشروعية التراثية التي تضفي على تحديد الشعر بأنّه الكلام الموزون المقفى أثر بالغ في جعل معيار الشعرية ظاهرياً، يرتبط بالوزن والقافية، بدل أن يكون داخلياً عضوياً يرتبط ببنية الكلام وحدة الرؤية"⁽²⁾.

بقي مفهوم الشعرية في النقد القديم، محصوراً في مفهوم الشعر، وفي جانبه الشكلي ففي الشعر الجاهلي ارتبطت الشعرية بالشفوية والإنشاد، وعرفت هيمنة الشكل في رسم معالمها فكان "السجع هو الشكل الأول للشفوية الشعرية الجاهلية"⁽³⁾، فالعربي في هذا العصر، آثر الإيقاع الصوتي لأنه يحقق له المتعة والأريحية لنفسه فالشعر وُضع أساساً للمتعة والاستفادة، فكان أعشى قيس يدعى (صنّاجة العرب)، "ومن هنا كانت تقاس شاعرية الشاعر، بقدرته على الابتكار الذي يؤثّر في نفس السامع، ذلك أنّ مدى فهم السامع لما يقوله، هو الذي يحدد مستوى بيانه الشعري"⁽⁴⁾.

والشعرية العربية القديمة، شعرية إسراع وإطراب، تعتمد على السمع بالدرجة الأولى محاولة الوصول إلى المتلقي بلغة بسيطة مفهومة، صريحة، وليس بلغة الإشارة البعيدة، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي رمز هذه الشعرية، ويسمّي أدونيس هذه المرحلة بمرحلة القبول، أي قبول الشاعر عمود الشعر وسيره على قوانينه، وكما يرى سعيد بن زرقعة، أنّ أدونيس وقف موقف الناقد الساخر من هذا الشعر، الذي يصفه بشعر الفسيفساء والترصيع، والشعر التمثيلي⁽⁵⁾، ويبدو أنّ سعيد بن زرقعة فهم بأنّه يقصد الشعر الجاهلي ككل، ولكنّ نظرته لم تكن كذلك؛ لأنّ التراث عنده تراثات، وكل شاعر يكون عالماً لوحده، وما يؤكد هذه الفكرة قوله: "سوف نرى أنّ الصورة التي تقدم عنه في الكتب التي أرخت لهذا الشعر (الجاهلي)، مؤكّدة على "وحدته" و"انسجاميته"، إنّما هي صورة تعميّية، وخاطئة ولا تنطبق إلّا على الشعر التقليدي الرديء"⁽⁶⁾، هذه نظرة تبين بأنّ الشعر - عند أدونيس - ليس موحداً وإنّما هو متنوّع، متعدد، رغم

(1) أدونيس/ الشعرية العربية / دار الآداب / بيروت / لبنان / ط1/ 1985، ص 44.

(2) أدونيس/ سياسة الشعر/ دار الآداب / بيروت/ لبنان/ ط2/ 1996 ص 173.

أدونيس/ الشعرية العربية/ ص 10⁽³⁾

المصدر نفسه/ ص 22. ⁽⁴⁾

سعيد بن زرقعة / الحداثة في الشعر/ أبحاث للترجمة والتوزيع والنشر بيروت/ لبنان/ ط1 / 2004/ ص 36. ⁽⁵⁾

(6) أدونيس/ موسيقى الحوت الأزرق/ دار الآداب/ بيروت/ لبنان / ط2/ 2011/ ص 88.

شكله الموسيقي الواحد، فعلى الناقد إذن أن لا يعمم الحكم في دراسته.

ورغم سعي الشعرية العربية إلى ترسيخ ثقافة الثابت والالتزام بقواعد الشعر القديمة، إلا أن النقد يذكر أن هناك محاولات تمردت على هذا الفهم، وسعت إلى تأسيس ثقافة مختلف، فأبو تمام مثلاً دافع عنه الصولي في نمط جديد من الكتابة الشعرية يعتمد على :

1- خصوصية الطريقة المحدثه في ابتكار معاني لم تعرفها الشفوية الجاهلية.

2- جودة النص الشعري في ذاته، هي التي يجب أن تكون معيار التقويم، لا الأسبقية الزمنية.

3- الثقافة العميقة الشاملة شرط لا بد منه لكل من يحاول أن يكون ناقدًا شاعرًا⁽¹⁾.

فالصولي، دافع عن تفوق أبي تمام، في جدّة الطريقة الشعرية، رغم حداثة عهده وزمنه فالمعيار الزمني ليس مقياساً للجودة الشعرية، كما عند بعض النقاد القدامى، فالشاعر لا يغيّر واقعاً سياسياً أو اقتصادياً بل يغيّر فنيّاً، وفي هذا السياق نرى إعجاب الشاعر أدونيس الشديد بأبيات أبي نّواس ويجعلها قمة في الشعرية، لأنها تعبر عن أفقٍ جديد لم يفتحه شاعر من قبل في قوله:

غير أنّي قائل ما أثناني

من ظنوني، مكذّب للعيان

أخذ نفسي بتأليف شيء

واحد في اللفظ شئ المعاني

قائم في الوهم، حتى إذا ما

رُمته، رُمّت معي المكان

ينظر أدونيس / الشعرية العربية / ص 43. (1)

فكائي تابع حسن شيء

من أمني ليس بالمستبان⁽¹⁾

إذن، فمدار الشعرية تحوّل بتحوّل مفهوم الشعر، الذي بات يعبر عن رؤيا وكشف، وحرية في الخيال وأصبح "لا يعتمد على جرس الكلمات فحسب، وإنما على ترجيعاتها العقلية أيضا"⁽²⁾، كما أنّ الشعر لا يعرف الاستقرار على حال ولا يمكن أن يستريح عند حدّ معيّن⁽³⁾.

وأصبحت القصيدة بهذا المفهوم لا تقدم أجوبة، بل تقدم أسئلة ومعانٍ لا تنقطع وأصبح القارئ هو الذي يحدد شعريتها، بناءً على لغتها التي تذوب في حساسية الشاعر، وتركّز على الجواني وليس البراني في تكوين القصيدة، "الشعر ليس موجوداً في اللغة، كما هو اللون مثلاً أو العطر موجود في الورد، الشعر في الإنسان والإنسان هو مألّى اللغة بالشعر ومألّى العالم"⁽⁴⁾.

لهذا السبب كانت شعرية أدونيس، شعرية رؤيوية، تركّز على الشعر وقراءته فالشعر عنده هو أسر الحياة وسرّ وجودها، وأتته لأبد للشاعر أن ينتقل من التعبير إلى طريقة وكيفية التعبير، "وشعرية القصيدة أو فنيّتها هي في شكلها لا في وظيفتها، وهذا يتضمن نتيجة أساسية، ليست قيمة الشعر في مضمونه بحد ذاته، وإنما هي في كيفية التعبير عن هذا المضمون"⁽⁵⁾، تندرج شعرية أدونيس في هذا القول، في الشكل وكيفية التعبير، وليست في المعنى، لذلك جاز عنده أنّ الشعر هو لغة اللغة، فابتكار الأشكال وطرق التعبير على غير العادة، هو ما يصنع الشعرية، وليس الشكل الثابت، الذي تحاك المعاني على مقاسه، وقد قال: "قل لي ما شكل تعبيرك الشعري أقل لك ما شعرك، وما لغتك وما معرفتك ومن

المصدر نفسه/ ص 55. (1)

(2) هزرت ريد/ طبعة الشعر/ تر: عيسى علي العاكوب/ مر: عمر شيخ الشباب/ منشورات وزارة الثقافة/ دمشق/ سوريا/ دط/ 1997/ ص 44.

ينظر خالدة سعيد/ حركة الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث/ دار العودة بيروت / ط 1/ 1979 ص 90. (3)

أدونيس/ سياسة الشعر/ ص 110. (4)

عبد الحميد جيدة/ الأصالة والحداثة/ دار الشمال/ طرابلس/ لبنان / دط/ دت ص 282. (5)

أنت" ⁽¹⁾، لهذا الغرض عمل جاهداً على أن يعطي نتاجاً وأشكالاً جديدة لأعماله الشعرية، تمثلت في قصيدة النثر وتوظيف السرد، والتحام الشعر بالمسرح وإحياء الأساطير القديمة والرموز التراثية.

ثمة شيء آخر أحرص على ذكره في شعرية أدونيس، وهي أنها مبنية أساساً على تصورات جديدة للشعر حملتها رياح الحداثة الغربية، وساقتها إليه كذلك بعض التيارات من التراث العربي القديم، وهذه المفاهيم كالآتي :

- " ليس الشعر أيّ كتابة، وإنما هو كتابة خاصة " ⁽²⁾.
 - " ألا شعر خارج لغة عالية، إبداعياً وفنياً " ⁽³⁾.
 - " إذا أتحدث عن الشعر العربي الراهن، فإنّي لا أتحدث عن هذا الحضور الشعري بكليته، وزناً ونثراً،..... لا أميز بين وزن ونثر ولا بين جيل وجيل، بل بين رؤية ورؤية وبين لغة ولغة " ⁽⁴⁾.
 - " لن يكون للفكر أو للشعر حضور خلاق إلا إذا تجاوز قلق البحث عن المعنى إلى قلق البحث عن معنى المعنى " ⁽⁵⁾.
 - " ليس الشعر إلا محاولة الإنسان أن يقول، مجازاً أو رمزاً ما لا يقال، وهو بوصفه لا يحده العقل أو المنطق، لا يمكن للقصيدة إن كانت شعراً حقاً، أن تندرج في إطار المعقولة المنطقية " ⁽⁶⁾.
- أهمية هذه المفاهيم، تسوقنا إلى بناء فكرة عن أدونيس، تعدّ قاعدة أسس عليها تصوّره للشعرية العربية فاعتباره الشعر لغة خاصة ولغة عليا، مبنية على الرمز والإيجاز بعيدة عن العقل والمنطق، مرتبطة بقلق البحث عن معنى المعنى، وهذا يعد مخاضاً لولادة شعرية تأخذ طابع هذا المفهوم الجديد، وهي شعرية تركّز على اللغة تتماهى فيها الأجناس الأدبية،

أدونيس/ موسيقى الحوت الأزرق/ ص 25. ⁽¹⁾

* هناك فرق بين النتاج والخلق في ثقافة أدونيس، فالنتاج ينطبق على عمل الشاعر القديم، فهو منتج مطمئن، والشاعر المعاصر المجدد لغته لغة الخلق المقلقة.

أدونيس/ موسيقى الحوت الأزرق/ ص 92. ⁽²⁾

المصدر نفسه/ ص 91. ⁽³⁾

المصدر نفسه/ ص 125. ⁽⁴⁾

المصدر نفسه/ ص 393. ⁽⁵⁾

أدونيس/ الصوفية والسريالية/ دار الساقبي/ بيروت/ لبنان/ ط01/ 1992 ص 24. ⁽⁶⁾

ويتداخل فيها الشكل مع المضمون.

إنّ الضجيج الذي رافق تعريف الشعر عند النقاد، نفسه الضجيج الذي تلقته الشعرية في تعريفها، ولسنا بصدد التعريف بهذه الآراء الآن، لكنّ الذي يهّمنا تعريفها عند أدونيس، ويقصد بها عنده "كتابة لا تمتلك شعريتها من خارجها وإنما بنائها النصي، الذي يراهن على إنتاج المعنى بالانفصال عن بلاغة الوضوح، وبالاعتماد على آليات تكشف غموض النص وتجدر إلذاذه"⁽¹⁾، الشعرية في مفهومه تنبجس من الداخل، أي من لغة النص، والطريقة الجديدة في طرح المعنى، حتى ولو وقعنا في الغموض، وإزالة الغموض ليست من صلاحيات الشاعر، بل من صلاحيات القارئ الواعي فالخطاب الصريح لا يُولد شعريّة، بل جاهزيّة تقضي عليه أثناء ولادته، "وسرّ الشعرية، هو أن تظلّ دائماً كلاماً، ضد الكلام لكي تقدر أن تسمي العالم وأشياءه أسماء جديدة، أي تراها في ضوء جديد، اللغة هنا لا تبتكر الشيء وحده، وإنما تبتكر ذاتها فيما تبتكره، والشعر هو حيث الكلمة تتجاوز نفسها مفلتة من حدود صروفها"⁽²⁾.

سرّ الشعرية عند أدونيس، في ابتكار الجديد، سواء كان في اللغة أو الصورة أو الرؤيا، والشاعر وحده من يصنعها، بتجاوزه للأزمة والأمكنة، وفي هذه النقطة الأخيرة يتعارض مع حسين مروة، الذي يرى أنّ "تجريد الشعر من ظروفه الزمانية والمكانية، إنّما يبعد الناقد عن الجذور الحية التي انبثقت منها الطاقة، والتي حملت الشاعر على اختيار الشكل الفني الملائم للتجربة"⁽³⁾، لكنّ هذا التعارض لم يمنع الناقد من الإعجاب بشعره، فهي هو يصرّح بجاليات وجدة الطرح لديه، في ديوانه "كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل"، بحيث يبيّن بأنّه صناعة فريدة، وولادة لأدب خصب، في قوله "لكن الشاعر هنا نسج للمشكلة بإبداع خلاق، حياة جديدة بهذه الرؤى الأسطورية، ذات الوجه الجديد، وبهذه الرمزية الشعرية التي خلقت لنفسها صيغاً من الفن واللغة والتصور، أكاد أقول أنّها بذاتها ولادة جديدة في أدبنا تحمل بشار الخصب"⁽⁴⁾.

لقد استثمر أدونيس كل مجهوداته، واستغل كل الوسائل من أجل الوصول بالشعر إلى خطاب كلّ مسكون بالقلق

خالد بلقاسم/ أدونيس والخطاب الصوفي/ دار توبقال للنشر/ الدار البيضاء/ المغرب/ ط01 / 2000 ص 186. (1)

أدونيس/ الشعرية العربية/ص 78. (2)

حسين مروة/ دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي/ مكتبة المعارف/ بيروت/ دط/ 1988 / ص 270. (3)

المرجع نفسه/ ص 366. (4)

والشك والسؤال، بعيد عن الإجابة الواضحة، قريب من لغة الإشارة، واتسع تفكيره ليحمل معطيات متناقضة في أشعاره و ذلك في اختياره للمشاهد والرؤى الشعرية المفعمة بالتساؤل والحيرة والبحث عن الحرية، فوظف الرمز بأنواعه الديني، التاريخي، والأسطوري... إلخ، والأسطورة والتراث الصوفي، وأعطى للمدينة مكانها في مغامرته الشعرية حيث ذكر كل من دمشق، مراكش، وهران، فاس، بيروت وأماكن أخرى، حاول إيقاظها، وتغيير نمط الحياة بها، فظهر له بصيص هذا التغيير، من خلال الشعر، لأنّ به يجوب هذا العالم، ويُحيي ما يستطيع إحياءه، ويخلق لغة تتجدد مع كل زمن وجيل، لا تعرف الركون والركود حيوية تصف بها أدونيس، "فلم يتماه مع أي بلد ولا مع أي إقليم، ولا مع أي دين، هو شاعر بابل الجديدة، وبابل التي ستغدو مأواه الأخير المأوى الوحيد، الذي يستقيم فيه مهما جرى، حتى النهاية، بابل لا تعطي جواز سفر، بل هي جواز سفر لجميع جوازات السفر، قال ذلك هو نفسه في قصيدة بابل :

عادة صوتي

أن يخلق بابل كي يتغير هذا الزمن

أن يخلق بابل، كي يتبرأ هذا الوطن .

ويقول أيضا :

أحيانا

بابل قبل

وبابل بعد

وبابل وجه للأحياء وللأموات⁽¹⁾.

مجموعة من المؤلفين/الضوء المشرقي أدونيس كما يراه مفكرون وشعراء عالميون / بدايات للطباعة والنشر/ سوريا/ ط01 / 2004 ص 116. (1)

إنّ ما يمكن قوله في إضافات أدونيس للشعرية العربية، كثير ويصعب حصره، فكتاباته عديدة، واطّلاعه واسع، ورغم تأثره بالغرب ومحاولة نقله لثقافة الآخر، إلّا أنّه - والحقيقة تقال - أنّه أضاف للشعر العربي، منذ لقائه بالشعرية الغربية، التي كوّنت له صدمة معرفيّة حاول من خلالها تطوير الشعرية العربية من جانبين: "الأوّل ويتصل بالشكل، أو على الأصح بالتشكيل، ويتصل الثاني، بما لا أحد ما يعبر عنه خيراً من كلمتي التجريب والاستقصاء"⁽¹⁾.

وقد ذكر مجموعة من إسهاماته في الشعرية العربية في كتابه "سياسة الشعر" ومنها⁽²⁾:

- عدم اعتماد الشعرية العربية، الأوزان الخليلية مقياساً أساسياً، وتم استبدالها بمقياس يستمد أصوله من موسيقى اللغة العربية، ومن طرق التعبير الجديدة، ومن تشكيلات شعرية جديدة تمكّن الشاعر من أن يتجاوز ضيق العبارة حين تتسع رؤياه.

- قصيدة النثر، وكان هذا سنة 1960، فهي اليوم تُهمّن وتغلب على الإنتاج الشعري الشبّاني، وأصبحت مقياساً حدائياً، وزيّاً مميّزاً في الحداثة الشعرية العربية، رغم التّهمّ عليها في بداياتها، وهذه القصيدة اتخذت شكلاً جديداً بدلاً عن الشكل القديم القائم على قواعد عمود الشعر، "وهي في كفاح عميق من أجل أن تتحول إلى نغم"⁽³⁾، أي إلى كيف وليس كماً.

- الإضافة الثالثة، وهي مفهوم القصيدة الشبكية المركبة، ويقصد بها مزيج تتألف فيه القصيدة الوزنية على تنوعها مع القصيدة النثرية على تنوعها.

- كما عمل على إثراء الجانب الإبداعي في الشعرية العربية، بما هو جديد على لغتها وهذا ما سمّاه: "بقول المجهول" مقابل "قول المعلوم" في الشعر القديم، حيث كان الشاعر يعمل على الإفصاح والجري وراء إيراد المعلوم لدى العامة والخاصة، أما الشاعر الجديد، فيعمل على إيراد غير المألوف والمجهول، حتى ولو اتسم بالغموض وبعد المقصد. "فينتقل الشاعر من

ينظر أدونيس/ سياسة الشعر ص 82. ⁽¹⁾

ينظر المصدر نفسه/ ص ص 73-74. ⁽²⁾

⁽³⁾ منير العكش/ أسئلة الشعر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ لبنان/ ط1/ 1979 ص 135.

موقف الواصف الذي يُجبر ويرسم ما كان وتحقق، إلى موقف الفاعل الكاشف المغير⁽¹⁾، فالشاعر في نظر خالدة سعيد ما كان متجاوزاً مراحل نفسه، وليس المحيط فحسب.

زيادة على الإضافات التي ذكرت في كتابه "سياسة الشعر"، تناثرت ميزات وخصائص أخرى لشعرية في مؤلفات أخرى، ومن جملة هذه الخصائص:

● ترسيخ مبدأ استعمال الرمز والأسطورة، حيث استعان في شعره على رموز تراثية وتاريخية ودينية عديدة "فالحياة في الشعر إشارة ولمح لا ترجمة أو تصوير، وهي رمز لا شرح، ومن هنا تكون "الحياة في الشعر"، أكثر غنى وأبقى من الحياة في الواقع المباشر"⁽²⁾، كما وظف الأسطورة (سيزيف- مهيبار- تموز- أورفيوس- عشتار- صقر قريش...) واستثمرها لخدمة لغته الشعرية، ما أضفى على كتابته نوعاً من الغموض.

● الاعتماد الكبير على ما يسمى بالتداخل النصي (التناس) في أعماله، فكان حضور النص الصوفي حضوراً مكثفاً، حيث استعار مقاطع كثيرة من أعمال النقري والسهورودي، بنى بها صوره الشعرية، ذكرها جهاد فاضل في كتابه (أدونيس منتحلاً)، فأدونيس له الفضل في إعادة بعث النص الصوفي من جديد، وإعادة قراءته "فاستعجل نهوض الشعرية العربية بمهام إعادة بناء هذه التجربة، بما يتيح إخراجها من الظل وتجديد الرؤية إليها... ولن يتم ذلك إلا بمساءلة النص الصوفي من داخل المسألة الأجناسية، والإنصات لإمكاناته واحتمالاته بغية الكشف عن وضعية اللغة فيه وعن آليات مُتخيلة"⁽³⁾، كما لجأ أدونيس إلى نصوص سورالية غريبة جعلها مرجعاً له يستنير به، مثل نصوص الشاعر الفرنسي رامبو.

● التركيز في شعرية على فعلي الكتابة والقراءة، منطلقاً من فكرة و"فرضية أساس مفادها أنّ النص لا ينبثق من فراغ ولا يؤول إلى فراغ، فليس مصيره أرضاً خلاءً ولا مصيره أرضاً يباباً"⁽⁴⁾، حيث يعمل القارئ على تشكيل حوارٍ بينه وبين النص، لكشف جاليات المقروء وشعرية، فالقراءة الواعية هي التي تخلص النص من غموضه، في لغة " صار فيها

خالدة سعيد/ حركة الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث) ص 92. (1)

أدونيس/ سياسة الشعر/ ص 154. (2)

خالد بلقاسم/ أدونيس والخطاب الصوفي/ ص 06. (3)

(4) هانس روبرت ياكوس/ جمالية التلقي، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي/تر: رشيد بنحدو/مطبعة النجاح الجديدة/الدار البيضاء/المغرب/ط1

المعنى ينشأ في أثناء الكتابة، إنه معنى بعدي، آتٍ، لا معنى قبلي ماضٍ⁽¹⁾ فالكتابة الشعرية الجديدة نص مفتوح على القراءة وإضافات القارئ، الذي يسلط اهتمامه على دراسة اللغة من الداخل، حتى يستطيع الوصول إلى العلاقات التي تشكلها عناصرها الداخلية، التي تلتحم في كتلة واحدة، "إن مسألة الشعر اليوم هي، في الدرجة الأولى مسألة قراءة، أو لنقل بصيغة أخرى، إن هذه المسألة هي في مستوى مسألة الكتابة، إبداعاً ووعياً"⁽²⁾.

وأدونيس في اهتمامه بالقراءة، يؤسس لخطوة محمّة في حياته الشعرية، وهي تأسيس قراءة جديدة، بعدما كان يبحث عن قصيدة وكتابة جديدتين، و"يبدو أنّه ينسب للقراءة الجديدة الإبداعية، التي يقدّمها للتاريخ العربي، مكانة الأمّ من القراءات الأخرى، كما يبدو أنّه ضمنياً يوحي بأنّه يوضع هذه القراءة في مكانة فريدة تأسيسية أو اختتامية ضمن عملية الإبداع نفسه"⁽³⁾.

إنّه، وإن صحّ التعبير يبحث عن قراءة تتمزج بالكتابة، وليس كتابة تلحقها قراءة، ويطمح لإبداع شعري جديد ينطلق من القراءة، وربما أصاب أدونيس في هذه النقطة، لأنّ القراءة بدء ولأنّ الله سبحانه وتعالى، بدأ القرآن بأول آية تدعو إلى القراءة في قوله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"⁽⁴⁾، فاعتنام لحظة القراءة وتركيز القارئ على نصه يقوّي سلطانه، ولا يجعل من المعاني تفلت، فهي في قبضته مادامت القراءة مستمرة، وتغيب الفاعلية متى انتهى الفعل "فالقصيدة العربية اليوم، آخذة في تحوّل يحتاج إلى تأمل ودرس، تكاد أن تصبح بالنسبة إلى القارئ، كمثل (مباراة) رياضية، أو كمثل (حفلة) غنائية- مجرّد (مشهد)، مجرّد (مسمع) وينتهي وجودها منذ أن تنتهي رؤيتها أو ينتهي سماعها"⁽⁵⁾.

القصيدة بهذا المفهوم الحديث، (مباراة)، (مشهد)، (حفلة)، بالنسبة إلى القارئ زمنها محدود قصير بالتفاعل في عصرنا أصبح لا يتواجد إلا مع قصر المدّة، وأصبحنا نسرع في كل شيء، التفاعل إذن، مرتبط بلحظات، وسرعان ما يذوب هذا التفاعل مع البعد عن النص، فعلى القارئ أن يغتنم كل ما أوتي من جهد في لحظة القراءة، لحظة اللذة، لحظة

مجلة فصول (الأفق الأدونيسي) - "هوية أدونيس السريّة" / أمينة غصن/ ص 199. (1)

أدونيس/ موسيقى الحوت الأزرق/ص ص 39-40. (2)

مجلة فصول (الأفق الأدونيسي) / كمال أبو ديب (هو ذا الكتاب) ص ص 205-206. (3)

سورة العلق/ الآية (01). (4)

أدونيس/ موسيقى الحوت الأزرق/ص 107. (5)

التفاعل، وهذا ما جعل جمهور النقاد يعتبرون النص جسداً تحدث المتعة بقراءته.

● تحويل فعل الكتابة والقراءة، إلى فعل بصري، فالنص يقرأ بالبصر أكثر مما يسمع، لأنّ البياضات، علامات التزقيم نظام الأسطر، ونظام الكلمات كلها تقرأ بالبصر لا بالسمع، و"ما يعرف الفنّ في خصوصيته وهو قابلية الشكل لأن يدرك بالحواس"⁽¹⁾، ولعل الحاسة الأساسية التي تشتغل عليها القصيدة المعاصرة أكثر، هي حاسة البصر لأنّها رؤيا ولا تتولد الرؤيا، وتستطيل إلاّ بفعل الصورة، أو الهيئة المعطاة للجسد والمعنى المنبعث منها⁽²⁾، وهذا مكسب جديد حققته الشعرية الجديدة، بعدما كانت في سابق عهدها تعتمد بالدرجة الأولى على السمع والرواية الشفوية والإيقاع الخارجي للقصيدة.

وللكتابة الشعرية الجديدة سمات، فهي "رحلة صيد، لاقتناص الروح الشعرية إن وجدت، في المثل، في السيرة، في اليومي، في التاريخي، في الإعلان، في المهمل، تعالج كل هذه المقاربات وغيرها كثير، بما تحمله من أضواء وألوان وسبل إخراج، لتحوّلها إلى علامات تنتج شعرية، كي يصبح الشعر كائناً لا محداً ولا نهائياً"⁽³⁾ أصبح من الممكن في النقد المعاصر، أن تتحول القراءة إلى كتابة، لكن شرط أن يتحوّل الناقد إلى قناص يتربّع علامات النص وحركتها فيحوّلها في لحظات توترها إلى معانٍ، فتنتج شعرية هذا النص والقارئ حين يقرأ، إنّما يقوم بعملية ردم الهوية بينه وبين نصه أو ما يسمى بالمسافة الجمالية في نظرية التلقي المعاصرة، حيث يلتقي أفق القارئ بأفق النص، وثمة يحدث التلاقي أو يحدث العكس وهو الخيبة، كما يقوم القارئ ببناء المعاني التي قام الشاعر بهدمها؛ لأنّ "الشاعر بوصفه خلافاً لا يُصلح، إنّهُ على العكس (يهدم)، من أجل الوصول إلى ما هو أجمل وأفضل، حين يكون الشعر (إصلاحاً) يلغي نفسه"⁽⁴⁾.

● سعي أدونيس إلى بناء ما يسمى بـ "شعرية التأويل"، فهو كما يقول بومسهولي: "يتأمل كونه الشعري يفتح على تأويل الكينونة، ويؤسس لشعرية التأويل، وفي هذا المستوى يجب أن نفرّق كما أشرنا بين الشعرية من حيث هي منتجة

هانس روبرت ياكوبس / جمالية التلقي / تر: رشيد بنحدو / ص 50. ⁽¹⁾

مُجد الحرز / شعرية الكتابة والجسد / مؤسسة الانتشار العربي / بيروت / لبنان / ط 01 / 2005 / ص 33. ⁽²⁾

مُجد صابر عبيد / مرايا التخيل الشعري / عالم الكتب الحديث / عمان / الأردن / ط 01 / 2006 / ص 22. ⁽³⁾

أدونيس / رأس اللغة جسم الصحراء / دار الساقي / بيروت / لبنان / ط 01 / 2008 / ص 35. ⁽⁴⁾

للنص باعتباره خاضعاً للقراءة التأويلية، والمؤول للعالم، وهو من جهة ثانية، قابل لتأويل ذات قارئه لأبعاده النصية⁽¹⁾، والتأويل بحسب هذا المفهوم صنفان :

- تأويل للنص، وهو منتج للشعرية انطلاقاً من القراءة التأويلية للنص.

- تأويل لذات القارئ، ولأبعاده النصية، أي هي قراءة في عمق ذات القارئ (المؤول الأول).

وحسب التأويل الأول، فإنّ قراءة وتأويل النص، تتم بعد الاطلاع على النص مكتوباً وغرضها الوصول وكشف المعنى، والمعنى الظاهري أسرع، والباطن المحتمل أبطأ : وهو كنه الشعرية، أمّا التأويل الثاني، فهو تأويل ذات القارئ للأبعاد النصية، وهو تأويل المعنى الناتج عن البعد النصي، وهو بحث عن معنى المعنى، وذاك أصعب، "والشعرية الحقّة، هي التي لا ترتعن بمناسبتها المباشرة، ولا تقول نفسها، في معنى واحد وحيد بل تحمل من الوجوه أكثرها، ومن الدلالات أوسعها وأبعدها، أدونيس يرفض على الجملة- وظيفة الكتابة الشعرية"⁽²⁾، ولذلك فلبّ الشعرية عنده في البحث عن معنى المعنى وليس المعنى.

● لجوء أدونيس إلى الغموض انطلاقاً من لغة الرمز والإشارة والأسطورة، والقناع، والمرايا وهي من أبرز النقاط الجوهرية التي تركز عليها شعرية، حيث ربط الغموض بالقراءة وأصبح من الستة أن يكون الشعر العربي المعاصر غامضاً بالجوء إلى التلميح والإشارة والخيال فتوافر هذه الوسائل المذكورة، يقود إلى الغموض، وبدوره يقودنا إلى التأويل، وعندها تنبع الشعرية، "فالجملية الشعرية تكمن بالأحرى، في النص الغامض المتشابه، أي الذي يحتمل تأويلات مختلفة، ومعانٍ متعددة، النص الذي "تذهب النفس فيه كل مذهب"⁽³⁾، والغموض ظاهرة منبوضة في الشعرية العربية القديمة، لأنها تعتمد على التصريح والإفصاح والوصف ومعرفة المعنى، ثم الكتابة، لكن الشعرية الجديدة، هي كتابة تعبّر عن رؤيا، والرؤيا دلالاتها متعددة تُستخلص كلّها بفعل فك الغموض، وقراءة المستور والوصول إلى رموز القصيدة في كل مستوياتها.

مجلة فصول (الأفق الأدوني)، عبد العزيز مسهولي (الكتاب والتأويل، دراسة في شعر أدونيس) / ص 347. (1)

سفيان زدادقة / الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، مرجعاً وممارسة / منشورات اختلاف / الجزائر / ط 1 / 2008 ص 43. (2)

أدونيس / الشعرية العربية / ص 54. (3)

ومن عيوب أدونيس، في توظيفه للغموض، هو مزجه بالعقلانية، والعقلانية هي استباق الفكرة وتدخّلها في الإبداع الشعري، أي الرؤيا، ونفس العيب ذُكر عند إليوت و"لن وُجّهت إلى إليوت تهمة: الإفراط في العقلانية والإفراط في الغموض، فإن هذين الأمرين يُوجّهان إلى شعر أدونيس"⁽¹⁾، وهذا مما يثبت تدخّل الفكر بقوة في شعر أدونيس، ويؤدّد لديه شعرية العقلنة بدلاً عن المتعة الجمالية⁽²⁾.

خاتمة:

خلاصة القول، إنّ أدونيس ناقد وشاعر ضاهى بشار بن برد، سلك طريقاً لم يسلكه شاعر في تجديده لنموذج القصيدة العربية، شكلاً ومضموناً، وأعطى مفاهيم جديدة للشعرية، شكلت محوراً مهماً من محاور النقد العربي الحديث والمعاصر، أضف إلى ذلك ما قدّمه من مجموعات شعرية، وكتابات رائدة حول الحداثة ورغم ما وجّه إليه من انتقادات في عمله النقدي والإبداعي، إلّا أنّه لا يمكن لعاقل، أن ينكر فضله في تطوير الفكر النقدي العربي، وإثراء الساحة الإبداعية، بأعمال جديدة، كأغاني محيار الدمشقي، و"كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل"، و"هذا هو اسمي"،... إلخ.

قائمة المصادر والمراجع:

- أدونيس / الشعرية العربية / دار الآداب / بيروت / لبنان / ط 01 / 1985 .
- أدونيس / موسيقى الحوت الأزرق / دار الآداب / بيروت / لبنان / ط 2 / 2011.
- أدونيس / سياسة الشعر / دار الآداب / بيروت / لبنان / ط 02 / 1996.
- أدونيس / الصوفية والسريالية / دار الساقى / بيروت / لبنان / ط 01 / 1992.
- أدونيس / رأس اللغة جسم الصحراء / دار الساقى / بيروت / لبنان / ط 01 / 2008.
- جان نغوم طنوس / ثنائية الشرق والغرب، دراسات في نصوص أدبية معاصرة / دار المنهل اللبناني / بيروت / لبنان / ط 01 / 2009.

(1) جان نغوم طنوس / ثنائية الشرق والغرب / دراسات في نصوص أدبية معاصرة / دار المنهل اللبناني / بيروت / لبنان / ط 01 / 2009، ص 347.

(2) ينظر المرجع نفسه / ص ن.

- حسين مروة/ دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي / مكتبة المعارف / بيروت / دط / 1988.
- خالد بلقاسم/ أدونيس والخطاب الصوفي / دار توبقال للنشر / الدار البيضاء / المغرب / ط₀₁ / 2000.
- خالدة سعيد/ حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث / دار العودة / بيروت / ط₁ / 1979.
- سعيد بن زرقة / الحداثة في الشعر / أبحاث للترجمة والتوزيع والنشر بيروت / لبنان / ط₀₁ / 2004.
- سفيان زدادقة/ الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعاً وممارسةً/ منشورات اختلاف الجزائر/ ط₀₁ / 2008.
- مجموعة من المؤلفين/ الضوء المشرقي أدونيس كما يراه مفكرون وشعراء عالميون، بدايات للطباعة والنشر سوريا/ ط₀₁ / 2004.
- محمد الحرز/ شعرية الكتابة والجسد/ مؤسسة الانتشار العربي/ بيروت/ لبنان / ط₀₁ / 2005.
- محمد صابر عبيد/ مرايا التخيل الشعري / عالم الكتب الحديث / عمان / الأردن / ط₀₁ / 2006.
- منير العكش / أسئلة الشعر / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / لبنان / ط₁ / 1979.
- عبد الحميد جيدة/ الأصالة والحداثة/ دار الشال / طرابلس / لبنان / دط / دت.
- هانس روبرت ياوس/ جمالية التلقي، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي/ تر: رشيد بنحدو/ مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء/ المغرب/ ط₁ / 2003.
- هربرت ريد/ طبيعة الشعر / تر: عيسى علي العاكوب / مر: عمر شيخ الشباب / منشورات وزارة الثقافة / دمشق سوريا/ دط / 1997.
- مجلة فصول (الأفق الأدوني).